الفصل الثالث :

أيتيولوجيا الأمراض العقلية والنفسية وتطبيقاتها العملية

- الصحة والتنمية .
- وضع برامج الوقاية والعلاج .
- الأمراض الوظيفية والأمراض العضوية .
- تعدد مصادر المرض أو أسباب نشأته .
- الأسباب أو العوامل الجسمية .
- العلاقة بين الدماغ والسلوك .
- العوامل الوراثية في نشأة الأمراض العقلية .
- الإنسان محصّلة للتفاعل الوراثي والبيئي .

الفصل الثالث :

أيتيولوجيا الأمراض العقلية والنفسية وتطبيقاتها العملية (مبحث السببية في الأمراض العقلية)

مقدمة : أهمية الصحة العقلية :

من الأهمية بمكان أن نحافظ على صحة المواطن العقلية والنفسية والجسمية ، وليس فقط لنجعله قادرًا على الإسهام في حركة البناء والتشييد المنشودة ، وعلى البذل والعطاء والخلق والإبداع ، والقيام بدوره في حركة التنمية ، ولكن أيضًا لاعتبارات إنسانية تتمثل في كفالة حياة سعيدة له ولأسرته وبالتالي للمجتمع كله ذلك لأن الإنسان المريض يسبب كثيرًا من المتاعب لذويه بل ولمجتمعه ككل[1] .ولذلك فالمحافظة على الصحة مطلب استثماري وإنساني معًا . ومن هناك تحرص المجتمعات الحديثة على تحقيق الرفاهية والسعادة لأبنائها . وخير ما نستدل به ونهتدي قول رسولنا الكريم : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير احرص على ما ينفعك[2] واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن (لو) تفتح عمل الشيطان » .

ومن هذا المنطلق تبدو أهمية الجهود التي نبذل في البحث والاستقصاء عن أسباب الأمراض والعلل النفسية أو العقلية أو الجسمية أو الاضطرابات السلوكية والأخلاقية ، وذلك بغية رسم البرامج اللازمة للوقاية والعلاج . بحيث نحمي الفرد من الإصابة منذ البداية بأي من هذه الاضطرابات .

الصحة والتنمية :

فلمبحث الأيتولوچي Etiology أو دراسة أسباب الأمراض النفسية والعقلية والسيكوسوماتية أهمية وقيمة في مجال التطبيق العملي والجهود القومية .

ونحن إذا كنا ، في شتى ربوع أمتنا العربية ، نخوض غمار كبرى في التنمية الشاملة الاقتصادية والاجتماعية والبشرية تضحى الجهود المبذولة لحماية الإنسان والمحافظة على صحته من كبرى الوسائل في تحقيق أهداف التنمية والاستثمار وتحقيق التقدم والرخاء والازدهار ، وبناء اقتصاد وطني متين ، وإقامة مجتمع قوي ترفرف عليه رايات الرفاهية والسعادة ، ويخلو من الصراعات الفردية والجماعية والقلاقل والاضطرابات . والفرد السويّ أساس تكوين المجتمع السويّ .

وضع برامج الوقاية والعلاج :

والأمراض العقلية والنفسية لابد وأن يكون لها أسباب ، ولا يمكن أن تكون مسالة عفوية أو تلقائية ، وإذا تعرفنا على هذه الأسباب ووضعنا أيدينا عليها أمكن علاجها والوقاية من الإصابة بها .

تعقد السلوك البشري :

ولكن التعرف على أسباب الأمراض ليس بالأمر الهين أو ليس مسألة بسيطة ، وذلك نظرًا لتعقد السلوك البشري وتداخل العديد من العوامل في حدوثه وتشابك هذه العوامل وتفاعلها مع بعضها البعض بحيث يؤثر كل منها في الآخر ويتأثر به .

تعقد المدنية الحديثة :

وبازدياد تعقد النمط الحضاري في العصر الحالي ، وانتشار المنافسة والصراع ، وتفشي الحروب الباردة والساخنة في كثير من أجزاء العالم ، يزداد شعور إنسان العصر بالقلق والتهديد والاضطراب ، يضاف إلى ذلك ارتفاع مستويات الطموح لدى الكثرة الغالبة من الناس وتجاوزها لحدود اقتدارهم ، أو ما لديهم من قدرات . مثل هذه الفجوة تخلق كثيرًا من المتاعب . يضاف إلى ذلك مواقف الحياة التي أصبحت مليئة بالإحباط وخبرات الفشل من جراء المنافسات المحتدمة في الحياة العصرية . وإلى جانب ذلك هناك ما يتفجر عن صناعة

الأسلحة وأدوات الدمار والتخريب والرعب والفزع والقضاء على حضارة الإنسان برمتها مما يزيد من شعور الإنسان بالتهديد والخوف .

نحن نعيش في . .

في خضم هذا الجو المفعم بالانفعالات والصراع والتوتر يعيش إنسان العصر ، ولذلك فالمدنية الحديثة وإن كانت قد نجحت في تحقيق الكثير من أسباب الراحة المادية للإنسان بما أنتجته من معدات تقنية فإنها قد خلقت له الكثير من المشكلات النفسية إلى الحد الذي جعل البعض يتشاءم ويصف العصر كله بأنه (**عصر القلق**) . ويقول أن الإنسان قد دفع ثمنًا غاليًا لحضارته المادية بالكثير من صحته . ولذلك ليس غريبًا أن تتمكن العلوم الطبية العلاجية والوقائية من حماية جسد الإنسان من تلك الأمراض والأوبئة التي كانت تحصد الأرواح بالملايين حصدًا كالطاعون والجدري والكوليرا وما إليها . ولكن ظهرت أمراض أخرى أدت كثرة انتشارها إلى أن يطلق عليها أمراض العصر ، وهي تلك الأمراض التي تنشأ عن أسباب نفسية واجتماعية بما في ذلك من الضغوط والصراعات والأزمان والحرمان والقسوة ، ولكن أعراض هذه الأمراض تتخذ شكلاً جسميًا ، وتعرف باسم الأمراض السيكوسوماتية أو النفسجسمية النفسفزيولوجية .

ومن أظهرها ما يلي :

الاضطرابات السيكوسوماتية .

1. السمنة .
2. تصلب الشرايين .
3. ضغط الدم المرتفع .
4. البول السكري .
5. الصداع النصفي .
6. بعض الأمراض الجلدية .
7. بعض أمراض الفم والأسنان .
8. قرحة المعدة .
9. قرحة القولون .

التعريف بمبحث الأيتيولوجيا (الأسباب)

وتهتم الأيتيولوجيا بدراسة أسباب المرض أو نشأته Etiology = The study of the causes or origins of a disease ولكن هذا المصطلح لا يستخدم للإشارة للسبب نفسه ، وإنما هو علم دراسة أسباب الأمراض[3] .

وقد يستعمل هذا المصطلح للإشارة إلى دراسة أو بحث أسباب حدوث ظاهرة أو سلسلة من الظواهر وليس من الضروري الظاهرة المرضية بالذات Etiology = investigating if the cases of a given phenomenon or series of phenomena, medically of the cause of a disease or disease.

وفي المجال الطبي دراسة أو بحث أسباب مرض ما أو نشأته أو مجموعة من الأمراض[4] . قد يطلق عليه العلية أو السببية أي مبحث أسباب المرض[5] A etiology .

ويطلق ، أحيانًا على هذا المصطلح تعليل أسباب المرض Etiology هذا المصطلح يعني الوقوف على الأسباب التي أدت إلى ظهور المرض أو احتماء المريض بأعراض مرضية بعينها ، والوصول إلى أسباب المرض يتطلب من الباحث دراسة طولية ـ أي رأسية ـ لتاريخ المريض من حيث ظروف ما قبل الميلاد أي فترة (الحمل) ثم تتبع معدلات ومظاهر نموه الجسمي واللغوي والحسي والحركي والعقلي والانفعالي وآثار هذا النمو في تفاعله في المجال الأسري والمجال المدرسي والمجال الاجتماعي والمجال المهني ، ودراسة التاريخ المرضي والظروف التي ظهرت فيها الأعراض المرضية ودراسة خصائص الشخصية الشعورية ، أي التي يعيها المريض ، والوصول إلى الخصائص اللاشعورية والدوافع التي تحرك استجابة المريض إلى استخدام هذه الدفاعات المرضية التي تظهر في شكل أعراض مرضية بغرض فهم طبيعة الحالة وتشخيص بناء الشخصية لوضع خطة علاجية ملائمة لإعادة الفرد إلى توافقه السوي مع الواقع الاجتماعي مرة ثانية[6] .

يشير إليه البعض على أنه مبحث تحليل المرض[7] على اعتبار أن تحليل الظاهرة ينتهي بتفسيرها ، أي معرفة أسبابها Causation of Disease .

تضافر العوامل :

ولا شك أننا عندما نشرع في تفسير السلوك الشاذ ، وشأنه في ذلك السلوك السوي ، نجد أنه ينتج عن تراكم أو توحد مجموعة من العوامل النفسية البيولوجية والاجتماعية Different Combinations of Psychosis Social Factors . حيث تتجمع الضغوط العقلية والفيزيقية والبيئية لتكون أنماطًا متشابهة من الاضطرابات ، وذلك بأساليب متباينة في الأشخاص المستقلين . ويتوقف ذلك على مقدار ما يوجد في شخصية الفرد من قوة وصلابة .

فقد يحتاج الأمر إلى حدوث تدمير حاد في الدماغ لشخص يتمتع بشخصية صحية وقوية لكي يعاني من نفس الاضطراب أو من اضطراب من ذات الدرجة في شخص آخر تمتاز شخصيته بعدم الثبات تلك التي تتعرض للاضطراب إذا ما تعرضت إلى جرح دماغي بسيط . ومؤدى ذلك أن الشخصية القوية السوية تحتاج إلى درجة أكبر وأكثر كثافة من المثيرات غير المؤاتية حتى يحدث لها الانهيار . أما الشخصية الضعيفة أو غير الثابتة ، فإن أقل قدر من الضغوط أو من الإصابات الدماغية تؤدي إلى انهيارها . ومعنى ذلك أن المثير الواحد ذا القوة الواحدة ليس له تأثير واحد في جميع الناس .

وإذا كنا نستطيع أن نحدد عوامل نفسية وراثية وبيئية وميلادية تكمن وراء المرض العقلي ، فإننا لا نستطيع أن نحدد الأثر النسبي لكل من هذه العوامل ، بل في كثير من الأحيان يصعب الفصل بين هذه الأسباب .

فإذا تربى طفل ما في أحضان أم عصابية شب عصابيًا هو الآخر ، فإننا لا نستطيع أن نجزم عما إذا كان هذا الطفل قد اكتسب عصابيته عن طريقة الوراثة أم أنه نقلها عنها بالتقليد والمحاكاة ، وبسبب تعاملها العصابية معه . ولذلك نؤكد أن العلاقة بين البيئة والوراثة إنما هي علاقة تفاعل[8] .

ونستطيع أن نحلل أسباب الأمراض النفسية انطلاقًا من المسلمة الأساسية القائلة بأنه (لا شيء يأتي من لا شيء) . فالعدم لا يقود إلا إلى العدم . نقول أننا نستطيع أن نتبين مجموعة من العوامل المهيئة وهي التي تمهد لحصول المرض ، أي أنها هي التي ترشح الفرد وتجعله مستعدًا للإصابة بالمرض ، وكأنه ينتظر حتى يأتي سبب آخر مساعد يعجل بظهور المرض في تلك التربة التي أعدتها ظروف الماضي أي الأسباب الوراثية والاستعدادية .

من هذه العوامل المهيئة ما يلي :

1. العيوب ومظاهر الضعف الوراثي .
2. الأمراض الجسمية .
3. الخبرات المؤلمة في الطفولة والمراهقة بوجه خاص .
4. تدهور الوضع الاجتماعي .

أمام الأسباب المهيرة فهي الأسباب المباشرة للمرض والتي يحدث على أثرها مباشرة

المرض حيث تندلع في أثرها الأعراض المرضية ، فهي تفجر الموقف ولا تخلقه ، من ذلك ما يلي :

1. الإفلاس الاقتصادي .
2. خيانة زوجة
3. الفشل في الحب .
4. صعوبات مرحلة البلوغ والشيخوخة .
5. الفشل في الزواج .
6. فقدان الوظيفة .
7. الانتقال لبيئة جديدة غير مواتية .

وإذا كان البعض يقرر أن هناك أسبابًا نفسية كالصراع والعدوان ، فإننا نظل أمام السعي لمعرفة الأسباب التي أدت إلى هذا الصراع أصالة أي معرفة سبب السبب .

ومن الأسباب الاجتماعية ما يقال عن سرعة حدوث التعير في الجوانب التكنولوجية أو المادية من الحضارة عن الجوانب المعنوية أو الروحية أو الأخلاقية أي وجود فجوة بين الجوانب المادية والمعنوية من الحضارة .

وفي تقديرنا لهذه الأسباب المهيئة والمهيرة نقول أن الأسباب المهيئة إذا كانت ضعيفة لزم سبب مهير قوي ، وإذا كانت الأسباب المهيئة قوية لزم عامل مهير بسيط ، ونحن تعبر عن ذلك بأن شخص ما يثور لأتفه الأسباب . ولكن الحقيقة أن هناك أسبابًا في ماضيه تسمح بذلك . ومن الجدير بالملاحظة أن العامل بعينه قد يؤدي إلى انهيار شخص ما وهو نفسه قد يؤدي إلى تقوية شخصية إنسان آخر . فالنار التي تذيب الدهون هي نفسها التي تجعل البيض يتجمد . وقد عبر عن ذلك قول الشاعر :

بعض الرجال حديد حين تقرعه خطب ، وبعضهم أوهى من الخزف

وفي إطار الضغوط النفسية ومطالب الحياة العصرية المتزايدة ينصح الفرد بالآتي :

خفف حمولتك من المتاعب واجعل لديك متسعًا للطوارئ حتى لا تنؤ بأخفها[8] .

الأمراض الوظيفية والأمراض العضوية :

وبذلك تصبح لدينا أمراض وظيفية يصيب العطب فيها وظيفة العضو دون أن يكون العضو نفسه مصابًا ، من ذلك العمى الهستيري ، أمام الأعراض العضوية فهي التي تنتج من وجود خلل أو عطب في البدن . وإن كان هذا لا يمنع من وجود العاملين معًا ، ولكن قد تكون الغلبة النسبية في ظهور المرض ترجع إلى واحد من العاملين .

فالصدمات الدماغية الناتجة من حوادث السيارات وما أشبه ذلك ، والتي تؤدي إلى وجود جروح دماغية يشخص أصحابها بأنهم مصابون بذهان عضوي أي مرض عقلي عضوي Organic Psychosis .

وحتى بعد أن تشفى تمامًا الإصابات المخية أو العضوية . فقد تظل الأعراض الذهانية مصاحبة للمريض . ففي حالة واحد من مرضى الفصام ظل مضطربًا حول ما حدث له واعتقد أن المستشفى وأراضيها ما هي إلا عزبته الخاصة وأن الأطباء والممرضين هم خدامه وحاشيته .

وحيث أنه كان سليمًا معافيًا قبل الحادثة ، فإننا نعزو أعراضه إلى جروحه الدماغية ، ونصفه كحالة عضوية . ولكن مع ذلك تكمن بعض الأعراض الوظيفية في هذه الحالة فهذاء العظمة Delusion of Grandeur الذي اعترض هذا المريض لا ينتج مباشرة عن الإصابة الدماغية التي حدثت له في منطقة خاصة من مناطق الدماغ . ويلاحظ أننا قد نجد مرضى آخرين لهم نفس الإصابة الدماغية قد لا يظهرون هذه الهذاءات Delusions .

وقد نجد مرضى آخرين لديهم إصابات دماغية مختلفة تمامًا عن هذه الإصابة في هذه المنطقة أو قد لا يكون لديهم تدمير على الإطلاق ومع ذلك يظهرون هذاءات مشابهة .

ولقد وجد أن الصدمات الدماغية الشديدة تخفض من قدرة الإنسان على التكيف لضغوط الحياة Stresses . ولقد شعر هذا المريض بالعجز عن تذكر الأحداث والأشخاص كما كان يفعل سابقًا ، وإن ظل إبصاره قويًا كما كان إلا أنه أصبح عاجزًا عن إدراك الأشياء أو الموضوعات التي كان يدركها قبل الحادثة بل أنه أصبح عاجزًا عن التمييز بين شكل المثلث وشكل المربع . ورغم أنه كان فخورًا دائمًا بقدرته الرياضية أصبح الآن يحار في أبسط المسائل الرياضية حتى في الجمع ، ووجد صعوبة بالغة في فهم الأمور الصعبة أو في تعلمها عما كان عليه الحال قبل ذلك . ولقد كون الهذاءات في محاولة منه لملء فراغات الذاكرة في حياته ، ولكي يتظاهر بأنه ما زال سويًا وللتخفيف عن مأساته واختلاطه ، ولو أنه استطاع أن يقبل ضعف قدراته الناتج عن الإصابة الدماغية لكان أحسن حالاً ولو أن بيئته الخارجية كانت أفضل مما كانت عليه لاستطاع أن يحيا حياة طبيعية .

ومن الحالات التي توضح السببية العضوية والتي تربط بين العوامل العضوية

والوظيفية حالة جندي شاب أصيب بجروح في الحرب الكورية خلال معركة بالمدفعية Artillery Bombardment حيث وجد فاقد الوعي وفي جمجمته ثقب كبير ، وكذلك عدد من الصدمات الدماغية ، وأجريت له الجراحة وسرعان ما التئم الثقب ، ولكنه كان منسحبًا وقليل الاتصال ، وكان يفضل الاستلقاء في فراشه وتبين أنه مصاب بعصاب عضوي ، ولكن بالفحص الدقيق تبين أنه ليس ذهانيًا على الإطلاق ، وكشف تطبيق الاختبارات عليه أنه فوق المتوسط في الذكاء ، وأنه لا يعاني من أي صدمات دماغية .

وكشف تاريخ حياته أنه كان إنسانًا غير ناضج انفعاليًا عندما استدعى للخدمة بالجيش ، وكان لا يتمتع بالثبات وسبق تشخيصه بأنه إنسان عصابي أي مريض بالعصاب النفسي ، أي المرض النفسي وطبق العلاج النفسي على حالته .

الأمراض العضوية قد تؤدي إلى اضطرابات وظيفية :

ولقد أصبحت أعراضه عصابية خاصة بالتكيف لجرحه الدماغي مضافًا إلى ما كان عنده من حصر عصابي أي قلق مرضي ، وبذلك أصبح قلقه أكثر مما يستطيع أن يتحمل ، ولكن هذا القلق قد أثاره الجرح ولقد تصرف تصرفًا ذهانيًا للتهرب من الموقف الخطير . وعلى ذلك فما كان يبدو على أنه مرض عضوي اتضح أنه وظيفي .

لقد كان هذا الجندي في الميدان غير قادر على تحمل المزيد من ضغوط المعركة وكان مستعدًا لاستقبال حدث مهير أو مفجر أو معجل والجرح الدماغي قام بهذه الغاية .

وهناك حالات يبدأ فيها الانهيار من جراء عوامل بيئية وينتهي إلى ظهور تعقيدات وأعراض عضوية كتغير الوظائف الغدية وفقدان الوزن ، ولكن ينظر إلى الاضطرابات في هذه الحالة على أنها وظيفية من حيث أن الاضطراب نشأ أو نبع أو صدر عن سوء التكيف النفسي وليس عن خلل عضوي . ومعنى ذلك أن الأعراض العضوية قد تكون ناتجة عن ضغوط نفسية ، وأن الإصابات الجسمية تؤدي إلى أعطاب وظيفية .

تعدد مصادر المرض أو أسباب نشأته :

ويطلق على الاضطرابات العضوية في مجال نفس الشواذ Abnormal Psychology اصطلاح سوماتوجنيك Somatogenic ويتكون هذا المصطلح من مقطعين سوماتو ، ويعني

الجسم أو البدن ، وچنيك وتعني الأصل أو المنبع أو المصدر أو السبب ، ولهذا المصطلح اشتقاقات فرعية هي :

1. جنوچينك Genogenic
2. كيموچينك Chimogenic
3. هستوچينك Histogenic
4. سيسوچينك Sociogenic
5. سيكوچينك Psychogenic

وجدير بالملاحظة أننا حين نبحث في العوالم السببية Etiological or Causative Factors في نشأة الأمراض العقلية يجب أن نتذكر أننا أمام عملية بالغة التعقيد ، لتلك العملية التي تستغرق فترة طويلة من الزمن . فهذه العوامل تقوم بينها علاقات تفاعلية أي تأثير متبادل .

الأسباب أو العوامل الجسمية :

قبل إلمام العالم بأعمال فرويد كان من الممكن أن نعتقد أن جميع الأمراض العقلية أمراض عضوية ، وذلك على ما تذهب إليه نظرية كربلين Kraepelin وعندما كان يفشل الطبيب في إيجاد سبب عضوي كان يصنف المرض على أنه (سوماچينك) أي مرض عضوي مجهول الأسباب ، ولكن تغير هذا الاتجاه ، وفقًا لآراء الكثرة الغالبة من علماء النفس والطب العقلي وأدى إلى اتخاذ موقف شمولي من الأمراض العقلية يتضمن العوامل السيكولوچية والبايولوچية والاجتماعية ، وأصبح أنصاره يقررون أن لهذا الاتجاه البيئي أهمية كبيرة في مجال التطبيق . ذلك لأننا نقف مكتوفي الأيدي إذا قلنا أن الاضطراب أو الشذوذ أو الجنوح يرجع إلى العوامل الوراثية ، تلك التي لا تستطيع أن نؤثر فيها أو نتحكم في تعديلها ، أما إذا أرجعنا تلك الظواهر إلى عوامل البيئة ، فإننا نستطيع أن نعدل البيئة ونحسنها للفرد ، وإن كان للأسف الشديد مازال بعض الأطباء البشريين يفضلون الاتجاه العضوي في تفسير نشأة المرض العقلي . بل أن هناك من يريد طبًا عقليًا Psychiatry دون علم النفس .

والحقيقة التي ينبغي تأكيدها هنا هي العلاقة الوثيقة بين الجسم والوظائف النفسية ،

فالإنسان وحدة متفاعلة متكاملة ، وحدة اجتماعية وجسمية ، وروحية ، ونفسية ، وأخلاقية ، وعلمية وعقلية ومهنية ... إلخ . وهناك علاقة بين الدماغ والسلوك .

العلاقة بين الدماغ والسلوك :

لاشك أن التحكم في السلوك وتآزر هذا السلوك يرتكزان على الجهاز العصبي المركزي في الإنسان The Central Nervous System ذلك الجهاز الذي يتكون من الدماغ والحبل الشوكي The Brain and the Spinal Cord ونحن نعرف أن العضلات تتقلص Muscles فقط عندما تستقبل مثيرًا Contract عصبيًا آتيًا من عصب حركي Motor Nerve ينشأ أصالة من الجهاز العصبي المركزي في الإنسان ، وينتج عن ذلك أن وجود أي خلل في وظيفة الدماغ أو الحبل الشوكي لابد وأن يؤدي ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، إلى بعض مظاهر الخلل في السلوك ، من ذلك أن وجود جرح في مركز الكلام في المخ Speech Center تؤدي إلى الفقدان الكلي أو الجزئي والحركي للكلام[10] Motor Aphasia أي فقدان القدرة على الكلام ، في حالات التدمير الدماغي الأكبر نلمس تغيرًا شاملاً في تكيف الإنسان العام ، والعطب الذي يصيب التكيف لا يفسره الخلل الموضوعي الذي يحدث في أعضاء الدماغ .

الجروح الدماغية :

الحقيقة أن مشكلة أصحاب الجروح الدماغية مشكلة مزدوجة :

1. فعليهم أن يتكيفوا مع عجزهم النوعي الذي أصابهم .
2. يجب أن يتلاءموا مع الفقدان العام للتكامل والتآزر A General Lose Untegration and Coordination

ولذلك يواجهون صعوبة في التكيف في الأيام الأولى من الإصابة . وإذا عجز المريض عن أخذ عجزه في الحسبان ، بصورة واقعية ، فإنه سوف يلجأ إلى الحيل الدفاعية اللاشعورية التي تقوم بها الذات الوسطى . وذلك في محاولة خفض حالة القلق الناشئة عن فشله في التكيف Ego-defensive Mechanisms .

ومن الجدير بالملاحظة أن نذكر أن هذه الحيل الدفاعية متعددة ، وأنها تصبح مرضية إذا بولغ فيها .

قبول الإصابة :

ويتوقف تكيف الإنسان على مدى قبوله أو رفضه للعجز الذي أصابه Disability من ذلك ما يبدو على الشخص المؤمن من قبول الكوارث بنفس راضية ، كقضاء وقدر من الله ، وتؤدي الحروب إلى حدوث إصابات دماغية تلك التي سرعان ما تشفى ، ولكن قد يظل بعض العجز الذي يوصف بأنه عجز مزمن Shronic وإذا راعينا التدرج فيما نقدمه له من أعمال فإنه قد يشفى تمامًا . أما إذا عجز فإنه يصاب بالخلط والاضطراب والتهيج .

والنتيجة العامة التي نخلص إليها أننا لابد أن نأخذ في الاعتبار الجروح الدماغية ، مهما كانت بسيطة عند تفسيرها اضطرابات السلوك ، ولكن ليس من الضروري أن نؤكد أن هذا الجرح هو السبب الوحيد أو السبب الرئيسي في حدوث الاضطراب ، ولا يمكن تحديد دوره النسبي إلا بعد أخذ صورة شاملة بالظروف والعوامل السيكولوجية والاجتماعية والفيزيقية . ومن المعروف أن هدف الإنسان حسن التكامل Well-integrated هو التكيف الجيد أو الحسن لبيئته الكلية .

التكيف وعملية التعويض :

ومعروف أن التكيف للبيئة لا يحدث إلا إذا كان الإنسان أولاً متكيفًا مع ذاته ، لأنه سيكون قادرًا على التعويض To Compensate عن اضطرابه الفيزيقي أو العقلي أو الاجتماعي دون أن يهتز تكيفه العام ، فإذا كان استخدام الحيل الدفاعية النفسية أو التغير في البيئة الاجتماعية إذا كانا قادرين على التعويض عن الجرح الدماغي ، فإن الإنسان سوف يبقى متكيفًا . أما عندما تفشل هذه الدفاعات أو تلك التغيرات ، فإن الاضطراب يحدث وفي هذه الحالة يكون ناتجًا عن العجز الدماغي مضافًا إليه الفشل في استخدام التعويض السيكولوجي .

العوامل الوراثية في نشأت الأمراض العقلية :

وهي العوامل الناتجة عن وراثةالفرد Genogenic أو عوامل الوراثة Heredity ويقصد بها تلك الصفات والخصائص التي تنتقل للإنسان من الآباء والأجداد ، وذلك عبر ناقلات الوراثة أو ما يعرف باسم الجينات والكروموزوم Chromosoms and Genes وتظهر أكثر ما

تظهر في صفات كطول القامة ولون البشرة والعينين وشكل الشعر .

التربة الصالحة :

ولكن من الجدير بالإقرار أن الوراثة لا تعمل في فراغ Vacuum إذ لابد لها من التربة الصالحة التي تسمح لها بالنمو والازدهار إلا احتواها الذبول والاضمحلال . فالبيئة تتلقى المادة الخام أو البذرة وتعمل على نموها وتوجه هذا النمو إما إلى الخير وأما إلى الشر . وبالمثل فإن البيئة لا تستطيع أن تصنع من العدم ، فنحن لا نستطيع أن نحيل الأقزام إلى عمالقة ولا البلهاء إلى عباقرة ولا الأبيض إلى أسود .

الإنسان محصلة للتفاعل الوراثي والبيئي :

ومن هنا نقول أن الإنسان ما هو إلا **محصلة التفاعل بين مجموعة العوامل البيئية** والوراثية ، ذلك التفاعل الذي لابد وأن يحدث عبر فترة معقولة من الزمن ذلك لأن المؤثرات العارضة أو الوقتية تزول آثارها بزوالها أما استمرار الضغط على مدى زمن طويل فإنه يسبب الانهيار ، ويمكن أن نعبر عن نشأة الإنسان أو الكائن الحي وفقًا للمعادلة الآتية :

$$O = \frac{(F \times H \times E \times T)}{R}$$

حيث يرمز الرمز O إلى الكائن الحي Organism باعتباره محصلة للتفاعل بين وراثته (H) Heredity وبين بيئته (E) Environment وعمره Age أو الفترة الزمنية التي قضاها أي الزمن (T) Time منذ ميلاده ، ويجب أن نؤكد أن هذه العوامل الثلاثة هامة ، وعلى ذلك فإنه يصعب أن نقول أن سمة معينة هي على إطلاقها بيئية أو وراثية فكل سمة لا بد وأن تتأثر بكلا العاملين البيئة والوراثة .

المنهج المستخدم :

وحيث إن كل من الوراثة والبيئة يشكل عوامل أو متغيرات فإنهما قد يرجع إليهما ما نلاحظه من فروق فردية Individual Differences إذا استطعنا أن نبقي على العامل الآخر ساكنًا أو ثابتًا أي دون تغيير . ومؤدي هذا أن المنهج الذي نستخدمه في تحديد ما هو وراثي مثلاً يتطلب أن نوحد الظروف البيئية ثم نقيس ما يوجد بين الناس من فروق فردية من ذلك

توحيد الظروف أو المعاملة في الملاجئ والسجون والإصلاحيات والمدارس الداخلية ، فإذا لاحظنا بين أطفالها فروقًا كانت ولابد ناتجة عن اختلاف العوامل الوراثية ، أما إذا أردنا معرفة تأثير العوامل أو الظروف البيئية ، فإننا نوحد العوامل الوراثية بأن نأتي بأناس أصحاب وراثة واحدة كما هو الحال مع التوائم العينية ونعزل كل توأم عن زميله ونضعه في بيئة مغايرة تمامًا لبيئة شقيقه ، فإذا لاحظنا فروقًا كانت ترجع بالضرورة إلى العوامل البيئية . فالمعروف أن للتوائم العينية Identical Twins وراثة واحدة نظرًا لانحدارهما من بويضة واحدة مخصبة A Single Fertilized Egg وحيث أو وراثتهما وسنهما واحد ، أي أن عامل الزمن وعامل الوراثة واحد فإن ما نلاحظه من تغير في شخصيتهما يرجع إلى التغيرات البيئية .

وهناك كثير من الدراسات التي كشفت أن التوائم العينية التي تربت في بيئة واحدة لديها صفات واحدة ، وأن التوائم التي تربت بعيدًا عن بعضها البعض تختلف في كثير من السمات ، وتتفق في سمات أخرى . أما عندما يختلف كل من البيئة والوراثة ، فإن الفروق الفردية تظهر بوضوح لاختلاف العنصرين ، ولنقارن بين شخص زنجي أفريقي وبين شخص طويل القامة من الدول الإسكندنافية ، لا تتضح الصورة عندما يختلف العاملان الوراثة والبيئة . فالوراثة والبيئة يسهمان في كل مظاهر السلوك الإنساني الشاذ منه والسوي ، ومع ذلك نستطيع أن نطلق على بعض السمات صفة الوراثية إذا كانت ناتجة عن التغير الوراثي في شخص يعيش في بيئة عادية وطبيعية . وتقدم الوراثة العوامل الاستعدادية فقط وإلى جانب هذه العوامل الزمانية والبيئية والوراثية ، هناك مجموعة أخرى تعرف باسم العوامل الميلادية وهي التي يولد الفرد مزودًا بها ، ولكنه لم يكتسبها من أسلافه ، ولم يكتسبها من البيئة من ذلك صدمات الميلاد ، ويتصل بهذه العوامل ما يعرف باسم الجبلة Constitution وتمثل البناء التشريحي والفسيولوجي للإنسان ، وهو الذي يحدد قدرة الإنسان على مقاومة الضغوط التي تسقط عليك Resistance tostress and Disease ونرمز لذلك بالرمز R في المعادلة السابقة .

وتبدو الخصائص الجبلية والمزاجية على الأطفال Temperamental فهناك الطفل الهادئ والمتهيج ، وهناك الطفل قوي البنية وضعيف البنية . وهناك الطفل المختلط . ويتمنى الناس أن يدركوا السبب والنتيجة أو العلة والمعلول بين هذه العوامل Cause-and Effect Relation.

الأسباب الكيماوية Chemogenic Factors :

الكائن الحي يحتفظ بنوع من التوازن الكيميائي الداخلي . وهناك عملية معقدة تكمن وراء تحقيق هذا التوازن . هذه العملية تسمى الاتزان البدائي أي الاتزان بين عناصر الكائن الحي المختلفة Homeostatic-Mechanisms وهي العمليات التي تحكم النمو والتكاثر . وإصلاح الهيموجينك أي الأنسجة أو أكسدة احتراق الطعام أي عملية الميتابولزم Metabolism أي عملية الأيض وهي مجموعة العمليات المتصلة ببناء البروتوبلازمات ودثورها وبخاصة التغيرات الكيميائية في الخلايا الحية التي بها تؤمن الطاقة الضرورية للعمليات والنشاطات الحيوية والتي بها تمثل المواد الجديدة للتعويض عن المندثر منها ، وتتحكم في عملية التمثيل هذه الإنزيمات Enzymes من ذلك العصارات الهضمية Digestive ومن ذلك أيضًا الفيتامينات Vitamin والهرمونات Hormones تلك التي تفرزها الغدد الصماء أي الغدد عديمة القنوات . هذه الهرمونات ذات أهمية كبيرة في عملية النمو والتكاثر . ومن الممكن أن تؤثر في السلوك الشاذ كل من العوامل الآتية :

1. نقص الإنزيمات .
2. ضعف الفيتامينات .
3. اختلال التوازن الهرموني .

وإلى جانب هذه العوامل الكيميائية الداخلية هناك أيضًا عوامل كيميائية خارجية أي آتية من البيئة الخارجية من ذلك نقص الأكسجين Lack of Oxygen أو التسمم الناتج عن نقص الأكسجين Anoxia في الأنسجة والتي قد تؤدي بدورها إلى التدمير الدماغي . كذلك الكيماويات السامة Toxic Chemicals or Poisons تلك التي تعرقل وظائف الجهاز العصبي المركزي . من هذه المواد السامة الرصاص Lead والكربون Carbon والمنجنيز Manganese وغير ذلك من الميكروبات التي تغزو الجسد .

العوامل النسيجية Histogenic Factors :

وتشير إلى ما يبدأ من الأنسجة Tissues وفي ميدان علم نفس الشواذ Abnorman Psychology تشير إلى كل الجروح الدماغية باستثناء ما يحدث من المواد الكيميائية أو من العوامل الوراثية .

من ذلك الصدمات أو الجروح أو الرضوض الفيزيقية Physical Trouma التي تنتج من الأعيرة النارية أو الطلقات النارية أو الناتجة عن حوادث السيارات أو غير ذلك من الحوادث وحيث أن خلايا الدماغ غير قادرة على التجدد أو التولد to Regenerate فإن التدمير الذي يحدث من سلسلة من الجروح يصبح متراكمًا كما يلاحظ ذلك في قدامي الملاكمين .

وهناك مصدر آخر لتدمير الأنسجة أو تخريبها أو هدمها(*) هو النيوبلازم الدماغي Brain Neoplasm أو الوورم الدماغي Tumor وقد يكون هذا الورم سرطانيًا أو غير سرطانيًا ويتضمن أيضًا هذا النوع من الاضطراب كالاضطراب النسيجي الناتج من الغزو الميكروبي الذي يدمر مباشرة خلايا الدماغ مثلما ما يحدث في المرحلة الرابعة من نمو مرض الزهري والذي يسمى بالشلل العام General Paralysis .

العوامل السيكولوجية والاجتماعية المسببة للأمراض العقلية والنفسية :

Psychegenic and Sociogenic Factors

تتحالف أو تتضافر الضغوط النفسية والاجتماعية مع الضغوط الفيزيقية Physical Stresses لتنتج مجموعة ما يعرف (بزملة أعراض التكيف) والحقيقة أننا لكي نفهم الاضطرابات العقلية لابد لنا من تبني الاتجاه المتعدد العوامل Multiple-Factor أي العوامل النفسية والبيولوجية والاجتماعية وذلك لفهم الاضطرابات العقلية والنفسية ، ويدخل في ذلك ما يتعرض له نمو شخصية الفرد منذ الطفولة حتى السن المتقدم من مؤثرات ، كذلك يلعب دورًا في نشأة المرض العقلي ما يتعرض له الفرد من الإحباط والصراع Frustration and Conflict .

الاتجاه المتعدد العوامل :

ولاشك أن التغير الفيزيقي ، والمطلب الشخصية والاجتماعية تضع الإنسان أمام تحديات قوية في مختلف مراحل عمره ، وإذا ما نجح في التعامل مع التحدي في مرحلة معينة

---

* Tissue Destraction.

أصبح مستعدًا للتعامل مع تحديات جديدة . وعندما يفشل الإنسان في حل مشاكله بصورة مرضية يصبح أقل تهيئًا بصورة مستمرة للحياة وبمرور الوقت يصبح سيئ التوافق .

وتلعب خبرات الطفولة ومشاكلها دورًا رئيسيًا في شخصية الفرد ، وكذلك ما يلقاه من إهمال ونبذ Neglact and Rejection أو اتباع منهج الحماية الزائدة في التعامل مع الطفل Over Protection تلك التي تؤدي إلى نشأة طفل هياب ذي شخصية هشة بوصف في اللغة العامية بأنه (بنوته) Sissy ومن الأنماط التربوية الخاطئة ممارسة التسلط أو السيطرة الزائدة على الطفل Domination ولا يقل عن ذلك ضررًا الإسراف في الدلع والتدليل Indulgence and Spoiling كذلك تؤثر في حياة الطفل النفسية والعقلية البيوت المحيطة أو عديمة الانسجام والوفاق Inharmonious Homes وبالمثل يصاحب مرحلة المراهقة مشاكلها الخاصة ، مثلها في ذلك مثل مرحلة الرشد ومرحلة وسط العمر ومرحلة النضوج ثم مرحلة الشيخوخة .

هذه صورة عابرة بمبحث أسباب الأمراض العقلية والنفسية والانحرافات السلوكية والأخلاقية ويتضح من خلالها النظرة الشمولية أو الاتجاه المتعدد العوامل في تفسير الأمراض العقلية ومن ثم ينبغي أن تؤخذ هذه العوامل جميعها في الحسبان عند وضع برامج الوقاية والعلاج ، وإن كنا نركز على العوامل البيئية لتوافر الإمكانية لتحسينها وتعديلها .

المراجع

(1) د. عبد الرحمن محمد العيسوي ، أمراض العصر ، الأمراض العقلية والنفسية والسيكوسوماتية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1986 .

(2) صحيح الإمام مسلم .

(3) English, B.H. and English A.C., A. Comprehensive P. 189 Dictionary of Psychological Terms, Longman, 1958.

(4) Drevern J. P. 86., A Dictionary of psychology, Penguin Book, 1952.

(5) د. محمد شرف ، معجم العلوم الطبية والطبيعية ، ص299 .

(6) فرج عبد القادر طه وآخرون ، معجم علم النفس والتحليل النفسي ، دار النهضة العربية ، لبنان ، بيروت ، الطبعة الأولى بدون تاريخ ، ص129 .

(7) على محمود عويضة ، المعجم الطبي الصيدلي الحديث ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، مصر ، ص800 عام 1970 .

(8) حامد زهران ، الصحة النفسية والعلاج النفسي ، عالم الكتب ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، 1978 ، ص116 .

(9) Strange J.R.; Abnormal Psychology, Mc Graw-Hill Book Co. 1965, 97 London.

(10) د. عبد الرحمن محمد العيسوي ، علم النفس الفسيولوجي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1986 .